

قصص الأنبياء

وقال تعالى في آخر سورة مريم : { وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا { شيئا عظيما من القول وزورا { تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتية يوم القيامة فردا } .
فبين أنه تعالى لا ينبغي له الولد لأنه خالق كل شيء ومالكة وكل شيء فقير إليه خاضع ذليل لديه وجميع سكان السموات والأرض عبيده هو ربهم لا إله إلا هو لا رب سواه كما قال تعالى : { وجعلوا شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون * بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم * ذلك إن ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير } .

فبين أنه خالف كل شيء فكيف يكون له ولد والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين وإلا تعالى لا نظير له ولا شبيهه ولا عدل له فلا صاحبة له فلا يكون له ولد كما قال تعالى : { قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد } يقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله { الصمد } وهو السيد الذي كمل علمه وحكمته ورحمته وبلغ جميع صفاته { لم يلد } أي لم يوجد منه ولد { ولم يولد } أي ولم يتولد عن شيء قبله { ولم يكن له كفوا أحد } أي وليس له عدل ولا مكافئ ولا مساو فقطع النظير المداني والأعلى والمساوي فانتفى أن يكون له ولد إذ لا يكون الولد إلا متولدا بين شيئين متعادلين أو متقاربين تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقال تبارك وتعالى وتقدس : { يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيفا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفئهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا } .

ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والإطراء في الدين وهو مجاوزة الحد فالنصارى لعنهم الله غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد .

فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التي أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها من أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافة تشریف وتكریم وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقول : بيت الله وناقة الله وعبد الله وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفا لها وتكريما وسمى عيسى بها لأنه كان بها من غير أب وهي الكلمة أيضا التي عنها خلق وبسببها وجد كما قال تعالى : { إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون } وقال تعالى : { وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون * بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون } .

وقال تعالى : { وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون } .

فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى عليهن لعائن الله كل من الفريقين ادعوا على الله شططا وزعموا أن له ولدا تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيما ائفكوه إلا مجرد القول ومثابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة تشابهت قلوبهم .

وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود الذي يعبرون عنه بعقل العلل والمبدأ الأول وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك ثم صدر عن الثاني كذلك حتى تناهت العقول إلى عشرة والنفوس إلى تسعة والأفلاك إلى تسعة باعبارات فاسدة ذكروها واختيارات باردة أوردوها ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر .

وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله وأنه صاهر سرات الجن فتولد منها الملائكة تعالى الله عما يقولون وتنزه عما يشركون كما قال تعالى : { وجعلوا الملائكة الذين عم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم سكتب شهادتهم ويسألون } وقال تعالى : { فاستفتهم ألبك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * اصطفى البنات على البنين * ما لكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين * فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين * وجعلوا بينه وبين الجنة نسا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون * إلا عباد المخلصين } .

قال تعالى : { وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين } .

وقال تعالى في أول سورة الكهف وهي مكية : { الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * فيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا * ما كثين فيه أبدا * وينذر الذين قالوا اتخذوا ولدا * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا } .

وقال تعالى : { قالوا اتخذوا ولدا سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون } .

فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن الله ولدا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا .

ولما كانت النصارى عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة من أشهر من قال بهذه المقالة ذكروا في القرآن كثيرا للرد عليهم وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم وقد تنوعت أقوالهم في كفرهم وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض .

وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب قال الله تعالى : { ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا } فدل على أنه الحق يتحد ويتفق والباطل يختلف ويضطرب فطائفة من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو الله تعالى وطائفة قالوا هو ابن الله عز وجل وطائفة قالوا هو ثالث ثلاثة جل الله .

قال الله تعالى في سورة المائدة : { لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا والله الملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير } فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم وبين أنه الخالق القادر على كل شيء وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه وقال في أواخرها : { لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمس الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون } .

حكم تعالى بكفرهم شرعا وقدرنا فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم هو عيسى ابن مريم وقد بين لهم أنه عبد مربوب مخلوق مصور في الرحم داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له

وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار وعدم الفوز بدار القرار والخزء في الدار الآخرة والهبوان والعار ولهذا قال : { إنه من يشرك باء فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار } .

ثم قال : { لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد } قال ابن جرير وغيره : المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة : أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب والابن على اختلافهم في ذلك ما بين المليكية واليعقوبية والنسطورية عليهم لعائن الله كما سنبين كيفية اختلافهم في ذلك ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين ابن قسطنس وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة . ولهذا قال تعالى : { وما من إله إلا إله واحد } أي وما من إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نظير له ولا كفؤ له ولا صاحبة له ولا ولد ثم توعدهم وتهدهم فقال : { وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم } ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التي توجب النار فقال : { أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم } .

ثم بين حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول وأمه صديقة أي ليست بفاجرة كما يقول اليهود لعنهم الله وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا وقوله : { كانا يأكلان الطعام } كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما أي ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلها ! تعالى الله عن قولهم وجهلهم علوا كبيرا .

وقال السدي وغيره المراد بقوله : { لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة } زعمهم في عيسى وأمه أنهما الإلهان مع الله يعني كما بين تعالى كفرهم في ذلك بقوله في آخر هذه السورة الكريمة : { وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قتله فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قتل لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليهم شهيذا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد * إن تعذبهم فإنه عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم } .

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتفريغ والتبويخ لعابديه ممن كذب عليه وافتري وزعم أنه ابن الله أو أنه أو أنه شريكه تعالى الله عما يقولون فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له : { أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك } أي تعاليت أن يكون معك شريك { ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق } أي ليس هذا يستحقه أحد سواك { إن كنت قتله فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام

الغيوب { وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب { ما قلت لهم إلا ما أمرتني به { أي ما قلت غير ما أمرتني عليه حين أرسلتني إليهم وأنزلت علي الكتاب الذي كان يتلى عليهم ثم فسر ما قاله لهم بقوله : { أن اعبدوا الله ربي وربكم { أي خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم { وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني { أي رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي فرحمتني وخلصتني منهم وألقيت شبيهي على أحدهم حتى انتقموا منه كان ذلك { كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد } .

ثم قال على وجه التفويض إلى الرب D والتبري من أهل النصرانية : { إن تعذبهم فإنهم عبادك { أي وهم يستحقون ذلك { إن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم { وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك ولهذا قال : { فإنك أنت العزيز الحكيم { ولم يقل الغفور الرحيم .

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله (A) قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح : { إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم { وقال : [" إنني سألت ربي D الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئا "] وقال : { وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهموا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين * بل نقذف بالباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون * وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون } .

وقال تعالى : { لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار * خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار } .

وقال تعالى : { قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين * سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون } .

وقال تعالى : { وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا } .

وقال تعالى : { قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد } . وثبت في الصحيح عن رسول الله (A) أنه قال : [يقول الله تعالى : شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك يزعم أن لي ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم ين لي كفوا أحد] . وفي الصحيح أيضا عن رسول الله (A) أنه قال : [لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يزرقهم ويعافهم] .

ولكن ثبت في الصحيح أيضا عن رسول الله (A) أنه قال : [إن الله ليملئ للظالم حتى إذا

أخذه لم يفلته [ثم قرأ : { وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد } .

وهكذا قوله تعالى : { وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ثم أخذناها وإلي المصير } .
وقال تعالى : { نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ } وقال تعالى : { قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون } وقال تعالى : { فمهل الكافرين أمهلهم رويدا }